بواكير القراءة السيميائية في التراث النقدي العربي

د.بن ضحوى خيرة، جامعة أمحمد بوقرة،بود واو بومرداس

الملخص:

يعالج هذا المقال مجموعة من العناصر، التي تبحث فيما جادت به الكتب التراثية من إشارات تحيل على علم العلامات، لكن بمفاهيم تختلف في المصطلح، وتتوافق من حيث المفهوم الذي لم يختلف كثيرا عما طرح على الساحة الثقافية النقدية العربية والغربية، وكأنه عالم مفتوح متحرك ينم عن استمرارية وإن بدت مستقلة، فإن حوافها تتلامس بمبدأ لا يقر بالثبات، بل يعلنها راية للرجوع إلى عالم لطالما أهمل لسنين

Abstract:

This article addresses a range of elements, which attempt to investigate the signals provided by historical books and that help researchers to know the science of signs, but with notions that differ in concept, and are in accordance in terms of perception, which was not significantly different from what has been exposed in the Arab and Western cultural critical arena. It is more like an open world in motion that reflects continuity. Although seemingly independent, the edges come into contact and do not recognize the principle of stability, but proclaim it as a banner to return to a world that has been neglected for years.

لطالما امتهنا عملية الوصل دون أي تردد، ولطالما أحببنا السفر عبر أزمنة الآخر لأن توقنا إلى ما ينتجه لازال متجذرا فينا برغم محاولات التنصل التي نحاولها، غير أن حركتنا إلى الوراء للرجوع إلى التراث الأدبي الإبداعي موجود لا محالة، والجري نحو عالم مبهر موجود أيضا، هذه المعادلة غير متساوية الكفة أبدا إلا أنها مطروحة على ساحتنا الثقافية، عبرت عنها تلك الحركات التي حاولت الرجوع إلى الماضي العربي السحيق لمعرفة ما جاد به العلماء من معارف في ثنايا الكتب والرسائل التي ظلت حبيسة ظلام المكتبات لسنين، إلى أن رأت النور على يد من اهتدى إلى وجود التشابه والتماثل.

ولو أن الفرق الزمني شاسع، والهدف مختلف، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود تلامس بين الأفكار والمفاهيم، حتى وإن اختلفت مصطلحاتها إلا أنها عبرت عن أفكار أصحابها آنذاك، فهل يمكننا حقا تسمية ما جاء في كتب من سبقونا بإرهاصات لسيميائية لم تكتمل بعد؟، بما أن العلامة هي القطب المحرك للسيمائية، فهل يجسد البحث عنها في كتب التراث نوعا من إثبات هوية نخاف نسيانها؟.هي بعض الإشكاليات التي حاولنا التركيز من خلالها على النقاط الآتية:مصطلح السيمياء في التراث العربي،و المفهوم التراثي للعلامة، وكذا العلامة في التراث بين الاعتباطية والقصدية، والعلامة في التراث بين المفهوم والصورة السمعية.

باعتبار أن هذه هي أهم النقاط التي مست النظام السيميائي ككل بدءا من العلامة، في مفاهيمها التراثية والمعاصرة، وفي خصائصها وعلاقتها بالمجال المحيط بها، الذي يساعد على خروجها بالكيفية التي يريدها الباث أو المرسل، وأيضا بحسب ما فهمه المرسل إليه أثناء تلقيه للرسالة المؤولة، بقناة اتصال كل ما يمكننا قوله عنها أنها تفاعل جد معقد، يرتكز على إحداثيات لا متناهية، مهمتها التركيز على جوهر الخطاب والرسالة المرسلة عبر أجيال متعاقبة، ليفقد المرسل صلاحية امتلاكها، وفي هذا المقام نحن نتحدث عن الرسالة الوضعية، أما الرسالة الإلهية فلها خصوصية أخرى غير هذه، فبحسب عظمة المرسل تكون الرسالة.

مصطلح السيمياء في التراث العربي:

تلتئم في هذه الذات شظايا الماضي والاختلاف، و تتناسج خيوط الرجوع إلى التراث لترفع وتقلص المسافة بين ما كان وما هو كائن حاضر، فبعد كّل عملية نقدية ينتجها الآخر تنتقل الإشاعات متخطية حواجز الأمكنة بترجمة وتعريب وفهم يتبعها وتطفو معها إلى السطح إضاءات معلنة عن وجود ما يشبهها، ويلتقي معها في بعض المفاهيم وينفصل عنها مكانيا وزمنيا ببون شاسع، هي قضايا كثيرة في ثنايا المتون التراثية أغفلت وتركت باسم القطيعة والتخلي عن الأصول ولا مجال إذا لترجيح كفة الرغبة في الحصول على كّل ما هو مبهر جديد.

غير أنّ الرؤيا التي كانت تنادي بالقطيعة والتملص من الماضي، أخذت منحا معاكسا نحو التراث النقدي، حركة عكسية تعلن عن رحلة اكتشافية لتنقب في التراث وتبحث في كّل ما يمكن إضاءته،وذاك أمر لا هو باليسير ولا السهل لأنّ "علاقتنا بالتراث لا تساوي علاقتنا بالآخر"[1]، الذي يلازمنا كالظ ل فنراه ماثلا أمامنا في كّل ما نود القيام به، وعملية الرجوع إذ ذاك وإن كانت مثمنة ومشجعة تتخللها أخطار لأنّ التراث النقدي من حيث الكم هائل ومن ناحية النوع لا يمكن حصره وتصنيفه بسهولة لطبيعة المادة المدونة فيه، فكّل مدونة على الأقل تحمل الكثير من التصنيفات والتخصصات التي رفّ بعضها بجانب بعض، والتي تلتقي في كثير من الأحيان ببعضها بعض.

تتبع مصطلح السيمياء في التراث العربي يأخذنا في رحلة بعيدة، إلى علوم أخرى اقترن بها هذا الاسم فاكتسبت دلالات تخرج عّما هو متفق عليه الآن، أو كما حددها العلم الحديث أنها تبحث في كّل ما هو غائر في الخطاب مهما كان نوعه، ولأن الخطاب ينتقل بحرية بين المظاهر السمعية والبصرية إلى هيئات لغوية معقدة، فإن الميزة الغالبة على اللغة هي انتمائها إلى طبيعة صيغية تصاحبها في كثير من الأحيان أفعال، وحركات، وإشارات، ممّا جعل دي سوسير ينظر نظرة بعيدة في إمكانية قيام علم يهتم بحياة العلامات داخل المجتمع وقد سمى هذا العلم بالسيميولوجيا*.

ولعّل السريان الذي امتد إلى اللغة بإعطائها نوعا من الخصوصية في التحليل شكلت العلامة أولى ركائزه والبؤرة التي يتم الانطلاق منها إذ "من الممكن تصور قيام علم يدرس حياة العلامات في صور الحياة الاجتماعية"[2]، هذا العلم الذي نظر إلى العلامة كونها الوتر النابض للسيميائية وتطبيقاتها الفعلية، فهي تعني من جهة أخرى "العلم الذي يدرس الكيفيات التي يتوسل بها من أجل التواصل بين أحوال ضمائرنا والتي من خلالها نؤول الرسالة الموجهة إلينا"[3]، التي تمثل كلاّ مكثفا من الدلالات والرموز والإشارات، لذلك فلا يمكنها أن تخرج عن إطار

اللغة والبحث عن المعنى من وراء تأويلها، والذي لا يوجد خارجها أيضا، بل يكمن في فعل التواصل ذاته وضمن فعل الكلام وعملية إنتاجه، خاصة إذا ما نظرنا إلى السيميائية ككل مركب تلتف حول ذاتها منطلقة، مما يمكن محاورته واستظهاره باختراقها للأنسجة اللغوية ومحاولة استكمالها للعملية التحليلية المعمقة.

غير أن تتبع العلامة لم يكن وليد اللحظة أبدا ولم يكن نتيجة ما يتراكم بل مما تراكم لسنين، فلهذا العلم ما يشبهه ولو أنه لم يقدم بالمصطلح ذاته، إلا أنه لا ينفي وجوده ووجود ما يدل عليه، فلطالما اقترن بالهندسة والسحر والتصوف وتبين الطلاسم وعلم أسرار الحروف،* التأملات التي وصلتنا من التراث ما هي إلاّ إشارات تنم عن استخدام هذا المصطلح في مجالات تختلف من حيث التخصص غير أنّها تلتقي في نقطة واحدة وهي الاعتداد بالهيئة، واعتبارها الدليل الذي يوصل إلى معرفة الأشياء وتأويلها والغوص في معانيها، وربطه بعد ذلك بما يحيط بها من علامات أخرى لا متناهية، حتى يحدث المعنى في النفس فتصدقه الحواس وتهتدي به اهتداء الدليل في الليالي الحالكة بنجم يسطع تأويله كلما غاب الكلام.

كأنّها بذلك أداة تستند على ما هو حاضر ظاهر للعيان، لتصل إلى أمر آخر غائب يتوارى في الأفق عن النظرة العادية لما هو سابح في هذا الملكوت، فلا يظهر بذلك إلا لخواص الخواص، ولا يصل إليه إلا المتفحص المقارن بين الأشباه وإن تداخلت، وإن كنا نتحدث عن هذا العلم الذي أولى عناية فائقة بتتبع العلامات داخل نظام معقد من العلاقات، فإننا نرجع بالزمن إلى الوراء بكثير لما كانت كلمة سيمياء في الأصل العربي، تعني العلامة أو الأمارة، ولما كان الاعتداد بالهيئة هو أسمى العمليات التي تتأسس على الفرضية والملاحظة والتجربة، كعلم قائم بذاته، غير أنه لا يحمل من المصطلحات كما هو الآن.

فكلمة سيمياء وهي مشتقة من الفعل "سام" الذي أخذ من مقلوب "وسم" ومنها قولهم سِمةٌ التي أصلها وِسْمَة ويقولون سيمى وسيماء وسيمياء بزيادة الياء والمد ومنها سَوَّم فرسه أي جعل عليه السمة وهي العلامة[2]، التي تمكنه من التميز عن البقية الأخرى بقصد من واضع العلامة، كما وردت اللفظة بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[4] ، وقوله جلّ وعلا: ﴿ونَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم﴾[5]، وكذلك قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[6]، وأيضا قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾[7]، المعاني الواردة في الآيات تدل على المعنى ذاته وتحيل إليه باعتباره العلامة الدالة على شيء أو صفة أو أمر ما، كما أنها تحمل في طياتها ركائز الاختلاف والتميز، بين صنف وصنف آخر.

المفهوم التراثي للعلامة:

تعتبر العلامة من بين أهم القضايا التي عالجها النقد المعاصر، خاصة فيما يتعلق بالمجال السيميائي، الذي يهتم بدراسة حياتها داخل النظام التواصلي، ولهاته القضية بالذات صوت بعيد غائر له وجود متوافر في عدد لا بأس به من المدونات التراثية المختلفة المشارب، ما يلفت الانتباه أنّ هذا العلم الذي يهتم بحياة العلامة كانت أولى ملامحه على يد علماء الأصو والتفسير، والمنطق واللغة والبلاغة، كما كانت الوجهة الحقيقية من وراء اجتهاداتهم البحثية دينية، تصبوا إلى فهم الآيات وتفسيرها والاجتهاد في تأويلها التأويل الصحيح انطلاقا من قوله تعالى﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[8] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[9] وتبعا للهدف الديني والرسالة السامية شحذ العالم المسلم قديما الهمم لمعرفة وفهم حاضر الأشياء بتتبع أصناف الدلالات على معرفة غائبها واستحضاره.

تجسدت هذه الملاحظة في تتبع حاضر الأشياء لمعرفة غائبها في فكر القاضي عبد الجبار إذ رأى " أنّ من حق الأسماء، أنّ يعلم معناها في الشاهد ثم يبني عليه الغائب"[10]،

فالعملية برمتها تعتمد على الشاهد الحاضر الماثل في الأعيان وجودا والذي يوجه معرفتنا نحو أمر آخر غائب غير ظاهر نستشف معانيه من التأويل، والبحث المستمر الذي يبلغ حد الشغف البحثي.

كانت ملاحظته تلك تتقارب وما جاء به المفهوم الحديث للعلامة بل يلامسها في كثير من الجوانب، كما حظيت العلامة بمسميات عدة وردت في الكتب التراثية من بينها السمة و الأمارة، الأثر والدليل وقد ورد في تعريف ابن فارس لمادة "دل": "الأصل في يدل على إبانة الشيء بأمارة تتعلمها،والدليل الأمارة في الشيء"[11]، وكأنّ ابن فارس بتعريفه هذا يلخص لنا مفهوم العلامة العرفية الواردة الذكر في كتب المتأخرين المتصلة أكثر بالاعتباطية والمحددات العرفية.

العلامة في التراث بين الاعتباطية والقصدية:

انتقل المجال البحثي من مجرد إعطاء تعريفات للعلامة إلى أبعد من ذلك، إذ سجلت بعض الأفكار المنقولة إلينا، وما جاء به التراث حضورها الفعلي لقضايا تبحث في فهم طبيعة العلامة بين وجودها القصدي والاعتباطي، إذ توصل أبو هلال العسكري إلى أن العلامة: "...يمكن أن يستدل بها أقصد فاعلها ذلك أم لم يقصد ،والشاهد أنّ أفعال البهائم تدل على حدثها وليس لها قصد في ذلك (...) وآثار اللص تدل عليه، وهو لم يقصد ذلك وما هو معروف في عرف اللغويين يقولون استدللنا عليه بأثره وليس هو فاعل لأثره عن قصد"[12]، تتجلى بعض المعاني الباعثة على التأمل انطلاقا من هذا التعريف الذي يورده للعلامة بحدها غير القصدي، إلاّ أنّها تدل على ذاتها من خلال ما ترك من أثر أو حدث يوحي بوجودها.

يلتقي في هـ اته النظرة كّل من "القاضي عبد الجبار وأبو هلال العسكري ومن يتبعها في طرحهما هذا مع قضية تعد الآن موضوع جدل كبير بين أقطاب الفكر السيميائي"[13]، فكرة قصدية العلامة وعدمها لازالت محل نزاع غير مفصول فيه، كما أنّ الجهود المبذولة لضبط

القضية وإيجاد حل ّ لم تكتمل بعد ورد التصور ذاته فيما يتعلق بقصدية العلامة لدى الراغب الأصفهاني "الدلالة ما يتوصل إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة أم لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنّه حي"[14]، غير أنّ كلمات الراغب الأصفهاني تتخطى وتنتقل إلى مجال آخر أوسع إلى الرمز والإشارة والكتابة والهيئة الدالة وكّل ما يهم من ذلك هو دلالة اللفظ على المعنى المراد إيصاله.

قدم الجاحظ على ذلك إضافة هامة، تمزج بين ضروب الحركات التي تزاوج ضروب الألفاظ لإخراج المعاني، وإيصالها بشكلها الصحيح، وقد يكون بعضها قصديا وبعضها الآخر بشكل لا إرادي لكنه مع ذلك يساهم في إثراء العملية التواصلية، بتركيبة تنتقل من المتكلم إلى المتلقي بطريقة وهيئة معينة و"المتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه ففرقوا ضروب الحركات، على ضروب الألفاظ وضروب المعاني، ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه، لذهب ثلثا كلامه"[15]، فعملية تلقي الخطاب انطلاقا من الباث الذي يهمه الإيصال تراعي سماع المتلقي ومشاهدته للحركات التي تتساير جنبا إلى جنب مع تتابع الأصوات لحظة خروجها، وهو ما أكد عليه العلم الحديث في تحديد مفهوم الخطاب الذي يقع بين حدي الإرسال: المرسل والمرسل إليه، أو كما عبرت عنه جوليا كرستيفا أن "الخطاب الذي يعني بشكل صريح و دون أي ضبابية جلاء اللغة وسط التواصل الحي"[16]، يقوم على أساس الفاعلية والمفعولية في الآن ذاته، مع أنّ المتلقي في بعض الأحيان يكتفي بتتبع أثر يمثل علامة حاضرة تدل على أمر ما فإن ذلك لا يعدم وجود خطاب قصدي، أو غير قصدي مهمته توجيه المتلقي إلى هدف معين.

انطلاقا مما هو حاضر تتكون حيثيات العلامة، وما يدل عليها من أحوال ظاهرة غير ناطقة،يرجع بنا الزمن إلى علم عرفه العرب قديما كما عرفته بعض الأمم الأخرى، علم يعتمد

على المشاهدة الدقيقة، والتفحص والفطنة، المنمة عن تجربة تطورت عبر سنين من الممارسة، يعرف هذا العلم بالقيافة يعتمد كّل الاعتماد على تتبع الأثر فبعد ما كان –الأثر- عين حاضرة أو عيان مشاهدة يصبح بعد مضي من الزمن، أثر يدل عليها في شكل رسم على الأرض، أو أثر أقدام، أو مجموعة حبال، أو أثافي، وآثار حيوانات، أو بقايا أعشاب، وكلها تمثل علامات يتم ترجمتها انطلاقا من المشاهدة والمتابعة،والمقارنة بينهما وبين ما يماثلها ليحصل المعنى الدقيق من العملية ككل، في هذه الحالة قد تكون الآثار المتبقية إّما بفعل قصدي كأن يترك علامة تدل على مكوثه أو مروره، وإّما بغير قصد لكن تحت نظام كوني بطبيعة الحال له قصد من وراء مدبر الأمور للبشرية جمعاء.

تأويل الملاحظات العينية انطلاقا مما هو مشاهد حاضر سُجل لدى الجاحظ بلفظ الهيئة أو النصبة"[18]، وقد استند في طرحه هذا على قوله تعالى﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[18]،لاحظ الجاحظ أنّ الهيئة التي كان عليها النبي سليمان في جلسته، كانت علامة تدل على حياته، وحركته بقي العمل على إثرها متواصلا، إلى أن دلت حركة وهيئة أخرى مناقضة للهيئة الأولى تمثلت في سقوطه على الأرض بعد أن أكلت الدابة منسأته، فتوقف العمل وفهم القصد من وراء تلك الهيئة والحركة معا،وهو موت سيدنا سليمان عليه السلام، إذاً هناك هيئة وعلامة ظاهرة دلت على أخرى غائبة، تفهم من خلال تفسير وتأويل وفهم بعد تدقيق حاصل للموضوع المشاهد بالعيان.

استمرت محاولات الجاحظ بشكل تطوري، تبحث في أصناف الدلالات على المعاني، وتحديدها فتوصل إلى أنّ "جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد،أولها اللفظ ثم الإشارة ثمّ العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة وقد تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات"[19]،

يرى الجاحظ في اللفظ أنّه لازم بالصوت، الذي لا يظهر إلاّ بالتقطيع كتتابع الحروف، وهو فعلا ما يلتقي مع ما جاءت به الأبحاث الحديثة باعتبار أنّ الصورة السمعية هي تتابع للحروف تلقى في أذن السامع انطلاقا من الباث لتحدث مفهوما لديه، له ما يدل عليه في الخارج أو مرجع يفهم من خلاله المسموع.

أما الإشارة فقد تأتي مصاحبة للفظ لتزيد من معناه، وقد تنفصل عنه ليُكَوِن دلالة لوحده، كالدلالة على معاني بحركات وإيحاءات معينة، "وحسن الإشارة باليد والرأس ومن تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة"[20]، يليها العقد الذي يريد به الجاحظ "الحساب دون اللفظ والخط"[21]، يمثل معنى عيني ظاهر له أهمية كبرى "والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عّز وجل معنى الحساب في الآخرة"[22]، فهو بذلك يتعدى المعنى العادي للحساب إلى معنى أرقى آخر يتصل اتصالا وثيقا بالتدبر والتفكير في كّل ما هو ديني لمعرفة أحوال كثيرة، متغيرة وثابتة.

ينتقل الجاحظ إلى صنف آخر، وهو الخط إذ يرى فيه رؤية بعيدة باعتباره يدل على معاني تتخطى حواجز المكان والزمان بوجودها الكتابي " والكتاب يقرأ بكّل مكان، ويدرس في كّل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره"[23]، باق بقاء المدونات، أما النصبة فهي "الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض وفي كّل صامت وناطق، وجامد ونام"[23]،تتصاعد معرفتها من خلالها عمليتي التدبر والتأمل في كل ما يحيط بنا من صامت، وهو في الحقيقة ناطق بليغ، كل من الخط والنصبة لهما ما يماثلهما في البحوث السيميائية التي ترى في الكون مجموعة علامات ناطقة بصمتها، معبرة بهيأتها، فلا غرو إذا أن تتعدد مجالات السيميائية بالشكل الذي هي عليه الآن.

بعدما كان اشتغالها لا يتعدى ما هو إبداعي، أصبحت تهتم بالموضة، واللباس والألوان والهندسة المعمارية، والأجهزة، والعالم الحقيقي، والافتراضي على حد سواء، برغم

المسافة التي تفصل بين الجاحظ وبين ما جاء مُضمنا وظاهرا في المجال السيميائي، إلاّ أنّ هناك نقاط اشتراك كثيرة يتلامس فيها الطرفان، مع أنّ "الجاحظ لا يتوقف طويلا أمام الفروق التي تتوقف أمامها السيموطيقا الحديثة بين هذه الآلات البيانية أو العلامات الدالة، إلاّ أنّ مجرد تفطنه إلى هذا التصنيف، ومجرد ربطه بين وظيفة اللغة وبين المعرفة العقلية من جهة، وبين هذه الأخيرة وبين قدرة الإنسان واستطاعته إدراك الدلالات الأخرى،كانت مقدمة جد مهمة أتاحت لمن جاؤوا بعد (الجاحظ) أن يعمقوا من هذا الترابط"[24]،فمعرفة المقاصد من وراء كل ّ لفظ، وإشارة، وخط، وعقد، واعتمادها على بعض في التبليغ قد يكون بشكل متعمد قصدي، وقد يكون غير ذلك إلاّ أنّه يفي بالإيصال المرجو من وراء استخدامه.

العلامة في التراث بين المفهوم والصورة السمعية:

أعطيت العلامة مجالا اهتماميا بالغا، انتقلت فيه الرحلة إليها من البحث في الماهية إلى تكوينها الداخلي، تجسد في الطروحات التي أتى بها ابن سينا، باعتبارها ظاهرا محسوسا يدل على آخر غائب غير محسوس، تمثله قدرة الإنسان على تجريد الأشياء بنقلها من عالمها الحسي، إلى عالم آخر مجرد كون"أنّ الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية (...)فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتً ا، وإن غابت عن الحس (...) إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أنّ هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه"[25]، فما توحي به دلالات الألفاظ في مفهومها لدى ابن سينا من حيث التكوين هي مركبة من ثنائية، الأولى سمعية والثانية معنى، فإنّها لدى دي سوسير تتألف أيضا من ثنائية صورة سمعية (دال) وصورة ذهنية (مدلول).

فكل من ابن سينا ودي سوسير تحدثا عن ثنائية الدال والمدلول، واشتركا أيضا في إهمال المرجع إذ لم يعتبراه طرفا أساسيا في تكوين العلامة بالرغم الفترة الزمنية الضاربة في البعد بين كلّ من ابن سينا ودي سوسير، وكما هو ملاحظ فإن العلامة أخذت حظها الواسع في

التعريف، والتحديد والتوسع في التراث العربي، وأخذت حظها في التعريف والاختلاف في العصر الحديث، بحيث إذا رجعنا إلى تعدد العلامة لدى الأقدمين صوبنا الاتجاه مباشرة إلى أبي حامد الغزالي الذي حدد للأشياء مراتب في الوجود.

لاحظ أنّ "للشيء وجودا في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ، اللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الوجود في الأعيان"[26]،رتبت هذه العناصر بشكل دقيق، فما يوجد في الخارج ينطبع في العين فيوجد فيها، ثم بعد ذلك يقع في الأذهان، وهو ما يسمى (بالصورة الذهنية) بمعناها المعاصر، ثم من وجودها في الألفاظ إلى الوجود الكتابي الأخير، هذه العلاقة تحيل على علاقات آخر، تربط بين اللفظ والفكرة والأشياء المحسوسة أو المشار إليها، والتي يشترك فيها أفراد المجتمع باعتبار التواضع الاصطلاحي، الذي تتحقق به العملية التواصلية الممثلة لتجانس مجموعة من العناصر، رأى حازم القرطاجني أنّ بواسطتها يتم فهم العلامة، وتأويلها التأويل الصحيح فقد "تبين أنّ المعاني لها حقائق موجودة في الأعيان، ولها صور موجودة في الأذهان ولها من جهة على ما يدل على تلك الصورة من الألفاظ وجود في الأفهام والأذهان"[27] ، لسبب أنّ كّل عنصر يدل على العنصر الموالي له، فيبينه ويوضحه وعلى أساسه نفهم العلاقة ككل، والتي تتضافر فيها تركيبات دقيقة ومتجانسة، تمنح العمل المؤول الميزة والاهتمام القرائي.

لسبب أنّ ما ينطبع في السمع يُحصِّل صورة ذهنية فتكون تلك الصورة، مفهوم لعلامة ما في الخارج وسواء أكان الموصّل منطوقا أم مكتوبا فهو يؤدي العملية ذاتها في تحصيل الصورة الذهنية، لأنّ الأشياء الموجودة خارج الذهن، إذا تمّ إدراكها أحدثت صورا ذهنية، والتعبير عنها باعتبار وجودها الثاني الذي لا يتم إلاّ باللفظ المعبر عن ذلك، وإن كتبت صارت ألفاظا كتابية تدل عليها، هذا ما عبر عنه بقوله "كّل شيء له وجود خارج الذهن، فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة

عن الإدراك، أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين، وأذهانهم فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ، فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تقيم في الأفهام هيئات الألفاظ فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليه"[28]، إذ تمُثل الكتابة استعادة للصورة الذهنية التي تحيل إلى الشيء الخارجي، أو الصورة الموجودة في الخارج، هذا التشابك يبدل بين الوظائف فتذوب الحدود بينهما ويصبح الأول يعمل عمل الثاني وهكذا دواليك.

هوامش المقال:

حددت زمنيا نسبة إلى السنة التي صدر بها كتابه الدلالية البنيوية*

[1] Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générales, GD, Critique préparé par Turkio de Mouro, édition Payot, bd Saint, German, Paris, France, P33. «On peut donc concevoir une science qui étude la vie des signes au sein de la vie social. »

[2] E. Byssens, les langages et le discours, Bruxelles Office de publicité, 1943, P 05, « La science qui étude les procèdes aux quelles nous recourrons en vue de communiquer qui nos états de conscience et ceux par lesquels nous interprétons la communication qui nous est faite ».

* وردت هده النظرة في كتاب دي سوسير دروس في اللسانيات العامة ، الذي مثل ركيزة حقيقية لأعمال سيميائية كثيرة.

[3] قادة عقاق، في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، مكتبة الرشاد والنشر، سيدي بلعباس، الجزائر، د.ط، 2004، ص 13.

* راجع ما جاء في فصل التصوف من مقدمة ابن خلدون عن أسرار الحروف في كشف حجاب الحس.

[4] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، 311/12، 312 مادة (سوم).

[5] سورة البقرة، الآية 273.

[6] سورة الأعراف، الآية 48.

[7] سورة الفتح، الآية 29.

[9] سورة الرحمان، الآية 41.

[10] سورة الرعد، الآية 04

[11] سورة النحل، الآية 16.

[12] القاضي عبد الجبار: المعنى في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق بإشراف طه حسين، إبراهيم مذكور، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، 1960-1965، ص 186.

[13] ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979، 252/2 مادة (دل)

[14] أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1963، ص 13.

[15] قادة عقاق، في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص 23.

[16] الراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو مصيرية، (د.ت)، مادة (دل).

[17] -julia Kristiva, la langage cet inconnu une initiation a la l'linguistique, Edition du seuil, Jacob, paris, France, 1981, P : 16. « Le terme de discours désigne de façons regreuse, et sans ambiguïté, la manifestation de la langue dans la communication vivante ».

[18] الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، وضع حواشيه، موفق شهاب الدين، المجلد 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 2003، ص 61.

[19] سورة سبأ، الآية 13.

[21] الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1،ص 77.

[22] المصدر نفسه، ص 63.

[23] الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، ص 73.

[24] المصدر نفسه، ص، ص 73-74.

[25] الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، ص 63.

[26] المصدر نفسه، ص 63.

[27] قادة عقاق، في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، ص 73.

[28] ابن سينا، العبارة، تحقيق محمود الخضيري، القاهرة، 1970، ص ،ص 3،4.

[30] أبو حامد الغزالي، معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د.ت)، ص ،ص 75-76.

[31] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص 19.

[32] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ص 18

القرآن الكريم رواية حفص عن عاصم

قائمة المصادر والمراجع:

[1] أبو حامد الغزالي، معيار العلم، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د.ت).

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.

[3] الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، وضع حواشيه، موفق شهاب الدين، المجلد 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط02، 2003.

[4] الراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو مصيرية، (د.ت).

[5] ابن سينا، العبارة، تحقيق محمود الخضيري، القاهرة، 1970.

[6] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979.

[7] القاضي عبد الجبار: المعنى في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق بإشراف طه حسين، إبراهيم مذكور، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، 1960-1965.

[8] قادة عقاق، في السيميائيات العربية، قراءة في المنجز التراثي، مكتبة الرشاد والنشر، سيدي بلعباس، الجزائر، د.ط، 2004.

[9] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).

[10] أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1963، ص 13.

[11] - E. Byssens, les langages et le discours, Bruxelles Office de publicité, 1943.

[12] Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générales, GD, Critique préparé par Turkio de Mouro, édition Payot, bd Saint, German, Paris, France.

[31] julia Kristiva, la langage cet inconnu une initiation a la l'linguistique, Edition du seuil, Jacob, paris, France, 1981.